المدرسة التاريخية الألمانية للفكر الاقتصادي

أولا- التعريف بالمدرسة

تمثل المدرسة التاريخية الألمانية اتجاها فكريا يركز على أهمية السياق التاريخي والثقافي في فهم الظواهر الاقتصادية. رفضت فكرة القوانين الاقتصادية العامة التي تنطبق عبر الزمان والمكان، واعتبرت أن المبادئ الاقتصادية مرتبطة بطبيعتها بظروف تاريخية واجتماعية محددة.

ظهرت المدرسة في القرن التاسع عشر كرد فعل للاقتصاد الكلاسيكي الذي تمثله خاصة أعمال سميث وريكاردو، وقد استندت إلى التقاليد الفلسفية والثقافية الألمانية، وسعت إلى دمج الأبعاد التاريخية والأخلاقية في التحليل الاقتصادي؛ لذا اتسمت هذه المدرسة بتوجهها نحو الخصوصية التاريخية والتعددية المنهجية. فكان منهجها استقرائيا يعتمد على الملاحظة التجريبية والتحليل التاريخي بدلا من الاستنتاج النظري المجرد.

ثانيا- مراحل المدرسة التاريخية:

يمكن القول بأن المدرسة التاريخية الألمانية مرت بمرحلتين متميزتين:

1- المدرسة التاريخية القديمة: تأسست على يد فيلهلم روشير (1817–1894) وبرونو هيلدبراند وكارل كنايس، وركزت هذه المرحلة على دراسة التاريخ الاقتصادي لفهم تطور المجتمع. وسعت إلى بناء نظرية اقتصادية تستند إلى رؤى تاريخية، لكنها ظلت قريبة من بعض مبادئ الاقتصاد الكلاسيكي.

2- المدرسة التاريخية الجديدة: قادها غوستاف شمولر (1838–1917) وآخرون، وقد رفضت تماما نظريات الاقتصاد الكلاسيكي، ودعت إلى إعادة بناء شاملة للاقتصاد باستخدام المنهج التاريخي والاستقرائي. كما شددت على أهمية الإصلاح الاجتماعي وتدخل الدولة كأدوات لتحسين المجتمع.

بحلول أوائل القرن العشرين، تراجع تأثير المدرسة مع صعود الاقتصاد النيوكلاسيكي وتركيزه على النمذجة الرياضية. ومع ذلك، استمر تأثيرها من خلال التأكيد على التحليل التاريخي والمؤسسي في الاقتصاد الحديث والعلوم الاجتماعية.

ثالثا- الخصائص العامة للمدرسة التاريخية:

هناك عدة خصائص ميزت طريقة تحليل المدرسة التاريخية الألمانية، ويمكن تلخيص أهمها فيما يلي:

- **اعتماد المنهج التاريخي:** تعتبر هذه ميزة رئيسية لمنهج هذه المدرسة، حيث أعطت الأولوية لدراسة الظواهر الاقتصادية في سياقاتها التاريخية.

- **نقد الاقتصاد الكلاسيكي:** عارضت المدرسة مبدأ "دعه يعمل" في الاقتصاد الكلاسيكي، ودعت إلى تدخل الدولة لتصحيح إخفاقات السوق وضمان رفاهية المجتمع، كما اعتقدت المدرسة بشدة أن القوانين الاقتصادية

ليست عالمية بل خاصة بالسياقات الثقافية والتاريخية لكل مجتمع، واعتبرت تلك القوانين تبسيطا غير مبرر للظواهر الاجتماعية المعقدة.

- **دمج العوامل الاجتماعية والسياسية:** دمجت المدرسة الاقتصاد مع العلوم الاجتماعية الأخرى، بما في ذلك القانون وعلم الاجتماع والأخلاق، مشددة على ترابط هذه المجالات.

- **التوجه الإصلاحي:** دافع أنصار المدرسة مثل شمولر عن الإصلاحات الاجتماعية، بما في ذلك قوانين العمل وإعادة توزيع الدخل، باعتبار السياسات الاقتصادية أداة لمعالجة القضايا الاجتماعية. وتعتبر هذه الخاصية مكملة للخاصية السابقة.

رابعا- المبادئ الرئيسية لفكر المدرسة التاريخية:

يمكن تلخيص المبادئ الرئيسية التي قامت عليها المدرسة في النقاط التالية:

- **السياق التاريخي والمؤسسي:** أصرت المدرسة التاريخية الألمانية على دراسة الاقتصاديات ككيانات متطورة تتأثر بشكل عميق بالأحداث التاريخية والمعايير الثقافية والمؤسسات الاجتماعية؛ وكان هذا التوجه مختلفا تماما عن النماذج التجريدية السائدة في الاقتصاد الكلاسيكي.

- **اعتماد منهج متعدد التخصصات:** لم تنظر هذه المدرسة إلى الاقتصاد بمعزل عن غيره من العلوم، بل كان يُعتبر مرتبطا بالقانون وعلم الاجتماع والتاريخ. كان هذا المنظور الشامل أساسيا لفهم تعقيدات الاقتصاد في العالم الواقعي.

- **المنهج الاستقرائي:** ركزت المدرسة على جمع وتحليل البيانات التجريبية بدلا من الاعتماد على الاستنتاجات النظرية. وكان هذا النهج الاستقرائي يهدف إلى استنباط المبادئ من الدراسات التاريخية والإحصائية بدلا عن التنظير المجرد.

- **المنظور التطوري:** أكد رواد المدرسة على أن النظم والمؤسسات الاقتصادية تتطور بمرور الوقت لتتأقلم مع الظروف التاريخية والاجتماعية المتغيرة. وقد ركز هذا النهج التطوري على أهمية فهم تطور المؤسسات.

خامسا- أجيال ورواد المدرسة التاريخية:

لقد تطورت المدرسة التاريخية وانتقلت من المبادئ التأسيسية إلى تطبيقات أوسع متعددة التخصصات، وذلك عبر ثلاثة أجيال من المفكرين:

- **المؤسسون (الشيوخ):** مع بدايات القرن 19 وضع هذا الجيل الأساس التاريخي والمنهجي للمدرسة، ويضم خاصة: فيلهلم روشير، برونو هيلدبراند، كارل كنيز.

- **المطورون (الشباب):** هذا الجيل وسّع خلال منتصف القرن 19 التركيز المنهجي والتجريبي للمدرسة، مع التأكيد على دور الدولة. ويضم هذا الجيل خصوصا غوستاف فون شمولر وأدولف فاغنر.

- **المؤسسون الجدد (اليافعين):** أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، دمج هذا الجيل مبادئ المدرسة في دراسات أوسع تشمل المؤسسات وعلم الاجتماع والثقافة، نذكر تحديدا: ماكس فيبر، لوجو برينتانو، فيرنر زومبارت.

نستعرض الان على سبيل المثال لا الحصر أبرز الأفكار لبعض رواد هذه المدرسة، وذلك كما يلي:

- **جورج فريدريك ليست** "George Friedrich List" (1789-1846): اقتصادي ألماني وكان أبا للمدرسة التاريخية الالمانية، وقد نادى بالتجارة الحرة داخل ألمانيا، لكنه دعا الى الحماية من خلال تعرفة جمركية مرتفعة ضد المستوردين من السلع المصنعة، وذلك لحماية الصناعات المحلية الناشئة. "ليست" كان يرى أن الأمة يجب أن تنمي طاقاتها الانتاجية قبل أن تواجه المنافسة الدولية، وهذه الطاقة الانتاجية تكمن قبل كل شيء في الصناعة التحويلية، وليس في استخراج ما تقدمه الطبيعة. وكان فريديريك ليست مقتنعا كل الاقتناع بأن ذات الأفكار الاقتصادية ليست صالحة دائما لكل البلدان ولا في كل الأزمنة، وذلك لاختلاف الخصائص والمميزات سواء على المستوى المكاني أو الزماني.

ولم يكن "ليست" من أنصار الاقتصاد الذي ينطلق من الفرد، ولم يكن أيضا من أنصار الاقتصاد ذي الصفة العالمية، بل كان يسعى وراء علم اقتصاد ينطلق من الوطن. فالفرد يسعى لتحقيق مصلحته الخاصة، أما الدولة فتعمل على تحقيق الرفاه لكل مواطنيها. والمجتمع من وجهة نظر "ليست" يمر بمراحل من التطور، تبدأ بالمرحلة الرعوية فالزراعية، فالزراعية الصناعية، ثم أخيرا المرحلة الزراعية الصناعية التجارية، والدولة هي المسؤولة عن تأمين شروط الانتقال من مرحلة الى مرحلة أرقى.

- **فيلهلم جورج فريدريش روشير " Wilhelm Georg Friedrich Roscher " (1817–1894):**

كان فيلهلم روشير اقتصاديا ألمانيا له العديد من المؤلفات، من اهمها "نظام الاقتصاد الوطني" و"تخطيط لاقامة الدولة وفق المنهج التاريخي". وتتمثل أهم أفكاره بشكل عام فيما يلي:

- الهدف من الاقتصاد هو اكتشاف ما اكتشفته الدول وفكرت فيه ورغبت فيه في مجال الاقتصاد، بالإضافة الى ذلك، من المهم أيضا فهم ما حاولوا تحقيقه ولماذا (أو لم لا) حققوه؟

- المجتمع ليس فقط مجموعة من المواطنين على قيد الحياة الان ولكن أيضا مفكري الماضي، لذلك لا يكفي أن نلاحظ حقائق الحاضر فقط لفهم اقتصاد بلد ما.

- لا توجد مؤسسات اقتصادية جيدة أو سيئة تماما، على العكس من ذلك، كل مؤسسة منها قامت بوظيفة في الوقت الذي ظهرت فيه، ومهمة الباحث هي محاولة فهم ما كانت عليه، ولماذا لم تعد قادرة على تحقيق ذلك؟
- يجب علينا دراسة الاقتصاد لفهم العلاقة بين المجتمع وتنظيمه، وبهذه الطريقة يمكننا مساعدة البلدان خلال الفترات المختلفة لتطوير أقصى امكاناتها الاقتصادية. وبهذه الطريقة يتم تأسيس مهمة الاقتصاديين كوكلاء اجتماعيين للتغيير.

- **مكسيميليان كارل اميل فيبر " Max Weber " (1864–1920)**: ماكس فيبر عالم اجتماع ومؤرخ واقتصادي سياسي ألماني، ويعتبر من بين أهم المنظرين لتطور المجتمع الغربي الحديث. يرى "فيبر" أن البيروقراطية هي البناء المجتمعي المتسلسل الذي عن طريقه تتم ادارة التنظيمات الكبيرة بطريقة صحيحة متسلسلة، وبكفاءة وفاعلية.

كما كان يرى فيبر أن المعتقدات الدينية هي التي تؤثر في العامل الاقتصادي، وليس العكس كما يرى "كارل ماركس" وغيره، وهذا ما حاول توضيحه كتابه الموسوم بـ "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، اذ أكد أن العامل الأساسي الذي أدى الى نشوء النظام الرأسمالي هو بروز الأخلاق البروتستانتية المسيحية في أوروبا. وكان "فيبر" يؤكد كثيرا على أن الدولة تتميز بالقوة والعنف، وتمارس ما يسمى بمشروعية العنف، ويعني هذا ان الفرد ليس له الحق في ممارسة العنف، مهما كانت قيمته الاجتماعية ومكانته الوظيفية في المجتمع، فالدولة هي المؤسسة الوحيدة التي لها الحق في ممارسة العنف والقوة باسم القانون والتشريع والدستور، ويكون العنف المبرر هنا بالسجن أو المراقبة أو معاقبة المجرم، واصدار اللوائح القانونية التي تجرم الفعل الاجرامي الذي قام به الفاعل الاجتماعي.

سادسا- نقد المدرسة التاريخية:

ساهم مفكرو المدرسة التاريخية بشكل جماعي في فهم شامل للاقتصاد باعتباره مجالا ديناميكيا يعتمد على السياق، متجاوزين النماذج النظرية البحتة. ويمكن شرح هذه المساهمة بشكل مختصر في الجوانب التالية:

- **تطوير التاريخ الاقتصادي**: ساهمت المدرسة في إضفاء الطابع الرسمي على التاريخ الاقتصادي كمجال دراسي. وقد وضعت أسسا لفهم الية تكيف الاقتصادات وتطورها، من خلال توثيق وتحليل السلوكيات الاقتصادية عبر الزمن.

- **التركيز على السياق التاريخي**: أكدت المدرسة التاريخية الألمانية على أن النظريات الاقتصادية لا يمكن تطبيقها بشكل عالمي دون مراعاة السياق التاريخي والثقافي. هذا النهج ساهم في فهم أكثر دقة للاقتصاد كعلم مرتبط بالعلوم الاجتماعية والسياسية والتاريخية.

- **التجديد في المنهج:** يمكن توضيح مساهمة هذه المدرسة في تجديد منهج دراسة الاقتصاد كما يلي:

- ✓ تجاوز الطبيعة التجريدية للاقتصاد الكلاسيكي من خلال التركيز على التحليل التاريخي والتجريبي للنظم الاقتصادية؛ فقد اعتمدت المدرسة على جمع البيانات ودراسة الحالات لفهم الظواهر الاقتصادية، هذا النهج العملي ساهم في تطوير سياسات عملية أكثر مبنية على ملاحظات واقعية.

- ✓ حققت المدرسة بعض التوازن مقابل النظريات السائدة آنذاك (القرن 19)، حيث أبرز نقدها للاقتصاد الكلاسيكي القيود المتعلقة بالافتراضات الأساسية، مثل السلوك العقلاني والأسواق المثالية.
- ✓ من خلال دمج علم الاجتماع والقانون والتاريخ قدمت المدرسة رؤية شاملة للعمليات الاقتصادية، مما أثرى الإطار التحليلي لعلم الاقتصاد.

- **تقديم أفكار لتأسيس الاقتصاد المؤسسي:** لقد مهدت هذه المدرسة الطريق للاقتصاد المؤسسي الحديث من خلال استكشاف دور المؤسسات في التنمية الاقتصادية.

- **المساهمة في السياسة الاجتماعية:** أثرت المدرسة في الإصلاحات الاجتماعية واقتصادات الرفاهية من خلال الدعوة لدور الدولة في معالجة التفاوت الاجتماعي؛ وساهمت أفكارها في تمهيد الطريق لمفاهيم حديثة مثل التأمين الاجتماعي وقوانين العمل.

وعلى الرغم من تلك الإسهامات، إلا أن المدرسة التاريخية الألمانية واجهت مجموعة من الانتقادات منها:

- **رفض القوانين الاقتصادية العامة:** يرى النقاد أن رفض المدرسة للقوانين الاقتصادية العامة أدى إلى ظهور نظريات مجزأة ومعتمدة على السياق، مما قلل من إمكانات الوصول إلى رؤى قابلة للتطبيق العام.

- **القيود المنهجية:** التركيز على التحليل الوصفي والتاريخي جاء على حساب تطوير نماذج تنبؤية. مما جعل إسهاماتها أقل نفعا في تطوير النظريات المجردة للاقتصاد.

- **نقد النهج التدخلي:** ان تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية بالشكل الذي دعت اليه المدرسة يعتبر مبدأ خاطئا، فهو عامل مهم ومحوري ولكن وفق الدور المناسب الذي لا يؤدي الى نتائج اقتصادية سلبية.

- **قلة الإسهامات النظرية:** يرى النقاد أن تركيز المدرسة على البيانات التجريبية والمنهج الاستقرائي غالبا ما أدى إلى عدم إنتاج أطر نظرية متماسكة.

- **تقليل أهمية النماذج الرياضية:** تشكيك المدرسة في النماذج الرياضية حد من تأثيرها في صياغة الاقتصاد الحديث الذي يعتمد بشكل متزايد على الطرق الكمية.

- **افتقار المدرسة للوحدة الفكرية:** افتقرت المدرسة إلى إطار نظري موحد، حيث اختلف مؤيدوها غالبا في تفسيراتهم ومنهجياتهم. هذا الافتقار إلى التماسك أضعف تأثيرها العام.

- **التميز بالنزعة القومية:** بعض النقاد أشاروا إلى أن المدرسة التاريخية مدرسة قومية، وهذه القومية تجاوزت نفسها كثيرا، بحيث تطورت الى نزعة عسكرية قادت ألمانيا الى حربين عالميتين، دفع المجتمع الدولي بسببهما الثمن غاليا. والملاحظ أن المدرسة قد ركزت بشكل مفرط على التنمية الاقتصادية الألمانية وشجعت سياسات اقتصادية قومية، مما أدى أحيانا إلى عزل أفكارها عن الحوار العالمي.

الملخص:

المدرسة التاريخية الألمانية للفكر الاقتصادي تيار فكري ظهر في القرن التاسع عشر كرد فعل على أفكار رواد المدرسة الكلاسيكية، مع التركيز على السياق التاريخي والثقافي لفهم الظواهر الاقتصادية. رفضت المدرسة التاريخية القوانين العامة للاقتصاد التي تنطبق عبر الزمان والمكان، وأكدت في المقابل على أهمية الظروف التاريخية والاجتماعية. اعتمدت المنهج الاستقرائي القائم على الملاحظة والتحليل التجريبي بدلاً من الاستنتاج النظري.

مرت المدرسة بمرحلتين: الأولى بقيادة فيلهلم روشير وبرونو هيلدبراند وركزت على التاريخ الاقتصادي؛ والثانية بقيادة غوستاف شمولر، والتي رفضت الاقتصاد الكلاسيكي ودعت لإصلاحات اجتماعية وتدخل الدولة. تراجع تأثير المدرسة في القرن العشرين مع صعود الاقتصاد النيوكلاسيكي، لكنها تركت أثراً على الاقتصاد الحديث من خلال التأكيد على التحليل التاريخي والمؤسسي.

من بين رواد المدرسة التاريخية الألمانية جورج فريدريك ليست الذي دعا لحماية الصناعات المحلية، وماكس فيبر الذي ربط الاقتصاد بالبنى الاجتماعية والدينية. ورغم إسهاماتها في تعزيز دراسة الاقتصاد كعلم اجتماعي، تعرضت المدرسة لانتقادات منها ضعف الوحدة الفكرية، والتركيز المفرط على التحليل الوصفي على حساب النظريات المجردة، والتقليل من أهمية النماذج الرياضية، والنزعة نحو القومية.